



الدليل إلى مصادر الإشكاليات البحثية في العلوم الاجتماعية والسياسية

حُسام مطر

تشرين الأول / أكتوبر 2025

شكر

راجع عدد من الزملاء مسودة هذه الورقة وأبدوا عددًا من الملاحظات التي جرى الاستفادة من معظمها، وهو ما جعلها أكثر اتساقًا. في هذا السياق أشكر الزملاء الأكاديميين ريمًا نعمة، وحسين رحال، وحسين أبو رضا، وشوقي عطية، وعبد الله محي الدين، وعلي مخ. مع الإشارة إلى أن ما يرد في الورقة يقع على عاتق الكاتب حصراً.

الدليل إلى مصادر الإشكاليات البحثية في العلوم الاجتماعية والسياسية

حسام مطر¹

مقدمة

يتمثل التحدي الأكبر الذي يواجه الباحثين والطلبة الجامعيين، ولا سيَّما في مرحلة الدراسات العليا، في تحديد إشكالية البحث (وصف دقيق للمشكلة أو الفجوة المعرفية ومنهجية البحث) والسؤال البحثي² (صوغ محدد لتوجيه عملية البحث). ويظهر هذا التحدي في كثرة الأسئلة لدى طلاب الدراسات العليا، وحيرتهم حول موضوعات تصلح للبحث العلمي في تخصصاتهم واستهلاك وقت طويل في الوصول إلى صوغ الإشكاليات وأسئلتهم البحثية. إن السؤال الجيد سيوجّه الباحث نحو النظرية والأدبيات والداتا والمنهج الواجب استخدامها، فإذا كان الباحث يجهل ما يريد معرفته فلن يعرف كيف يمكنه الوصول إليه.

تصف زينة أوريلي ذلك بالقول:

«البحث العلمي رحلة لاتخاذ القرارات. عليك الانخراط باستمرار في عملية اتخاذ قراراتٍ منطقية ومتسقة ومتراصة. وما معيار اتخاذ القرارات المنطقية والمتسقة والمتراصة؟ هو أن تقربك الخيارات التي تتخذها خطوةً نحو القدرة على الإجابة عن سؤال بحثك بمصداقية. لذا، فمن دون صياغة واضحة لسؤالك، ستسير في طريقٍ أعمى».

وتحدد أشلي رويين بدورها أربع استراتيجيات للوصول إلى السؤال البحثي:

1. **البدء بالإطار النظري ثم اختيار الموضوع:** تبدأ هذه التقنية بمفهوم أو إطار نظري أو نقاش أكاديمي معيّن، ثم يتم اختيار موضوع محدّد لتطبيق هذا الإطار عليه. قد يكون الإطار النظري مفهوماً (كالنوع الاجتماعي، أو الوكالة)، أو نظريةً (البنائية الاجتماعية،

1 أكاديمي وباحث متخصص في العلاقات الدولية، ومحاضر في معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية في موضوعات علم اجتماع النزاعات والحروب وعلم الاجتماع السياسي ومنهج تداخل التخصصات.

2 ينبغي الالتفات إلى الشروط الشكلية والموضوعية للسؤال البحثي، ومنها على سبيل المثال وضوح الصوغ، وقابليته للبحث، والأصالة، والجدوى العلمية والتطبيقية.

النظرية النسوية³، أو نقاشاً (الطبيعة مقابل التنشئة)، أو أدبياتٍ علميةً (أدبيات السجون، العقاب، القانون والمجتمع). ثم يحدد الباحث «حالة مثالية» يمكن أن تُستخدم لاختبار أو استكشاف هذا المفهوم النظري. مثال: باحث مهتم بكيفية استجابة المنظمات للقانون، وبعد مراجعة أدبيات القانون وعلم الاجتماع، يلاحظ تناقضات بين ما طرحه الأدبيات، فيقرر أن يدرس استجابة الشركات لقانون الحقوق المدنية الأمريكي.

في ما يخص الأطر النظرية والمفاهيمية، أشير إلى نقطة جوهرية مرتبطة بضرورة الاهتمام بالنظريات غير الغربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية والسياسية. فالنظريات السائدة في هذه العلوم ذات مركزية غربية، وهي بالضرورة ليست محايدة، بل تعكس منظومة مصالح ومنطلقات قيمية وثقافية. فهذه النظريات بمقدار ما تحاول تفسير الواقع فهي تصنعه أيضاً. لذلك مع الاهتمام بالنظريات الغربية، لا بد من مقاربتها بنظرة نقدية من ناحية والتنقيب عن مقاربات نظرية عالمية ظهرت في سياقات غير غربية من ناحية ثانية.

2. **البدء بالموضوع ثم البحث عن التأطير النظري:** يبدأ الباحث بموضوع يثير اهتمامه شخصياً، ثم يبحث عن نظرية أو إطار يساعد على تفسيره. قد يكون الموضوع ظاهرةً (مقاومة السجناء)، أو مكاناً، أو فترة زمنية، أو مجموعة سكانية. بعد اختيار الموضوع، يجب «تلبسه» ملابس نظرية مناسبة. مثلاً: إذا أراد الباحث دراسة مقاومة السجناء، يلاحظ أن مفهوم «الوكالة» يتكرر في الأدبيات، ويعلم أن هناك نقاشاً بين «الوكالة» و«البنية»، فيبني سؤاله البحثي حول هذا التوتر في سياق المقاومة. في هذه الاستراتيجية يمكن البدء بجمع البيانات قبل تحديد الإطار النظري.

هنا لا بد من الإشارة إلى أنه من أجل اختيار الموضوع ينبغي أن يكون الباحث مسؤولاً بأن يقترب من تناول المشكلات والتحديات المفتاحية ذات التأثير المباشر في مجتمعه وبلاده، ولا سيما إن كان من مواطني البلدان النامية/ الجنوب العالمي. إن الباحث موضوعي لكنه ليس محايداً، بل منحاز إلى قيم العدالة والحرية والمساواة ومواجهة الظلم والتمييز، لذلك هو معني بأن يتيح في أبحاثه ظهور صوت الفئات والمجتمعات المهمشة والمظلومة وتصوراتها ومصالحها. وهذه مسؤولية ضرورية ينبغي على الباحثين في البلدان العربية تحديداً الاهتمام بها لكثرة ما تعاني مجتمعاتها وأفرادها ودولها من تبعات الهيمنة الاستعمارية والاحتلال والاستبداد والتفاوت الاجتماعي والطبقي.

3 في علم الاجتماع مثلاً، النظريات محددة بخمس: البنيوية والوظيفية والصراعية والتفاعلية والنسوية. وهناك مقاربات تتبع لها مثل مقاربات تاريخية والهوية الاجتماعية والحقوق الرمزية. من خلال الدمج بين النظرية والمقاربة يتم التوصل إلى مناقشة نظرية حول الموضوع المطروح.

3. دمج الموضوع والنظرية منذ البداية: هنا يُختار مفهوم شائع أو مركزي في الحقل الأكاديمي ليكون هو نفسه الموضوع والإطار النظري في آنٍ واحد. هذه التقنية لا تفصل بين «ما الذي أدرسه؟» و«كيف أدرسه؟»، بل تأتي الفكرة دفعة واحدة. أمثلة على هذه المفاهيم: «اللامساواة»، و«السيطرة الاجتماعية»، و«المشاركة الانتخابية». لا يُدرس المفهوم بصورة مطلقة، بل في سياق محدد. على سبيل المثال: إذا أراد باحث فهم آليات «السيطرة الاجتماعية» في المترو، فهو لا يحتاج إلى اختراع نظرية جديدة، بل يستكشف كيف يظهر هذا المفهوم في سياق معين.

4. اللغز: البدء من لغز (Puzzle) يحير الباحث - سواء أكان نظرياً أم واقعياً - والبحث عن تفسير له. ينبثق اللغز النظري من الأدبيات لا من تجربة واقعية. قد يكون تناقضاً أو ملاحظة غير مفسرة تتكرر في الدراسات من دون تفسير مقنع. أما اللغز التجريبي فينبثق من تجربة واقعية (تاريخية، اجتماعية، إحصائية...). من الأمثلة على اللغز: لماذا تنفذ أمريكا عددًا كبيراً من أحكام الإعدام؟ ما سبب أحداث شغب سجن أتيكا؟ لماذا انهارت مدرسة بيركلي لعلم الجريمة؟

هذا الدليل ليس مخصصاً لمنهجية البحث العلمي، بل للمرحلة التي تسبق تبلور الإشكالية. أما كيفية صوغ الإشكالية وشروطها ومراجعة الأدبيات وبناء الإطار المفاهيمي والنظري ونوع البحث وكيفية جمع البيانات وتحليلها، فهذه كلها محالة إلى منهجية البحث العلمي. يسعى هذا الدليل إلى الإجابة عن السؤال الذي يؤرق الطلاب والباحثين حول الموضوع الذي يمكن البحث فيه. يعرض الدليل المصادر المحتملة التي يمكن للباحث استخراج إشكالية بحثية من مصدر واحد منها أو من خلال تشبيك مصدرين أو أكثر.

يمكن تبويب هذه المصادر (16 مصدرًا) وفق تقسيم ثلاثي على النحو الآتي:

الواقع

- (1) مشكلة واقعية
- (2) البنى والوظائف
- (3) أحداث وأنماط مستجدة
- (4) التطورات التقنية والتكنولوجية
- (5) الظواهر ولا سيّما المستجدة منها
- (6) الحاجات العامة التي لم تُلبّ
- (7) السياسات العامة
- (8) الأحجية

الأدبيات

- (1) التناقضات المعرفية
- (2) الفجوة والنقص
- (3) التكرار
- (4) النظريات الجديدة
- (5) تداخل التخصصات

الأشخاص

- (1) التجربة الشخصية
- (2) الأكاديميون المختصون
- (3) أصحاب الخبرة والتجربة

أولاً: الخطوات الأساسية

يبدأ الطريق نحو البحث العلمي بتحديد مجال/نطاق للبحث ثم استخراج موضوع عام للبحث⁴. هنا يدخل الباحث في مرحلة استكشافية تجمع ما بين مراجعة أدبيات استطلاعية⁵ (كتب، مقالات علمية، أطاريح جامعية، أوراق مؤتمرات)، ومراجعة الأشخاص (خبراء وأكاديميين). ضمن هذه المرحلة الاستكشافية، يقترح هذا الدليل عدداً من المصادر التي يمكن للباحثين اللجوء إليها لتحديد مشكلة البحث وصولاً إلى إشكاليته⁶.

4 يعني تحديد موضوع البحث رسمًا لحدوده وتمييزًا له من موضوعات أخرى، وذلك من طريق كشف مضمونه، شرط أن يمتلك الموضوع المطروح للبحث مبررين أساسيين: المبرر المجتمعي، أي أن يمتلك الموضوع حضوره المجتمعي (موجود ومعاش ومنتشر في المجتمع)، والمبرر العلمي، أي أن يمتلك حضوره المعرفي (وجود دراسات وكتب ومراجع حوله).

5 تكون القراءات استطلاعية قبل التحديد النهائي لموضوع البحث لمعرفة مضمون الدراسات السابقة وتحديد مسار مستقل بناءً على ما يتم اكتشافه من ثغرات أو نواقص. لاحقاً، بعد تحديد مشكلة البحث وإشكاليته، يقوم الباحث بقراءات متعمقة ونقدية في الأدبيات. تبدأ قراءة الأدبيات الاستطلاعية مع بزوغ الفكرة الأولية أو الانشغال المبدئي بالموضوع؛ لا تكون القراءة فيها موجهة نحو قضية دقيقة، بل تشمل مراجعة الكتابات العامة المرتبطة بالمجال؛ تُستخدم للتعرف إلى التيارات النظرية المختلفة، ومفاتيح التحليل السائدة، والفرضيات الشائعة؛ تساعد الباحث على تحديد الموضوع وتضييق نطاقه، وتكوين تصور أولي عن الإشكاليات الممكنة.

6 يميز ريمون كوفي ولوك فان كمينهوف في كتابهما "دليل الباحث في العلوم الاجتماعية" بين لحظتين لبناء الإشكالية: في اللحظة الأولى يتم تحديد الإشكاليات الممكنة وتوضيح خصائصها ومقارنتها فيما بينها بالاعتماد على القراءات الاستكشافية؛ وفي اللحظة الثانية يختار الباحث ويبين بوضوح إشكاليته الخاصة ويشمل الاختيار اعتماد إطار نظري متناسب مع المسألة المدروسة.

تقضي المرحلة الاستكشافية إلى تضييق الموضوع العام وتركيزه ليصبح محددًا، وهنا يكون الطالب قد وصل إلى المشكلة أو المسألة التي يجد أنها تستحق البحث. ترتبط المشكلة بمفاهيم وجوانب محددة من الموضوع العام. المشكلة هي وضع أو ظاهرة واقعية تنطوي على غموض أو خلل أو تناقض أو حاجة غير ملبأة، وتدفع الباحث إلى دراستها بغرض الفهم أو التفسير أو التنبؤ أو الحل. (مثال بسيط: تزايد عزوف الشباب عن المشاركة في الاقتراع في بلد ما)⁷.

انطلاقًا من تحديد المشكلة، تصاغ الإشكالية أو السؤال البحثي (هناك عدة تقاليد بحثية في هذه النقطة). قد تكون الإشكالية نصًا يشخص الفجوة والنقص ويوضح منهج الدراسة وقد تكون بمنزلة منبع للسؤال البحثي⁸. تجمع الإشكالية (سواءً كانت نصًا أو سؤالًا) بين بُعدين واقعي ونظري، ففي الجانب الواقعي هناك شيء (ظاهرة؛ حدث؛ تفاعلات) بحاجة إلى فهم و/أو تفسير وتأويل وهو يرتبط في الوقت نفسه بمفاهيم وإشكاليات نظرية. إن الربط بين الواقع والنظرية ضروري لتقديم تفسير متماسك، فالنظريات توفر أدوات تساعد على تحليل الواقع وتفسيره.

مجال البحث ← الموضوع العام (هنا يبدأ الباحث الاستفادة من النظر في المصادر التي يقدمها هذا الدليل) ← الموضوع المحدد للبحث (المشكلة/المسألة) ← الإشكالية (الفجوة/المنهج) ← السؤال البحثي.

مثلاً قد نلاحظ في الواقع الخارج ارتفاعاً ملحوظاً في نسب الطلاق بين الشباب في مجتمع معيّن بعد الحرب (مشكلة). حينها يصوغ الباحث سؤالاً أولياً في شأن كيف حفّزت الحرب ظاهرة الطلاق. هنا يتجه الباحث نحو مرحلة استكشافية

7 يمكن تحديد ثلاث ركائز للمشكلة البحثية في العلوم الاجتماعية:
- الركيزة الأولى: ارتباطها بالزمان والمكان، وهو عنصر أساسي لفهمها والعمل على حلها. تعتمد القضايا الاجتماعية على السياق الاجتماعي والثقافي الذي تحدث فيه، وتختلف تبعاً للزمان والمكان.
- الركيزة الثانية: امتلاكها معايير التصنيف المجتمعية كالعرق والجنس والعمر. ويرتبط استخدامها وإنتاجها بمؤسسات مجتمعية وبالعامل المجتمعي المؤسسي (مثل التربية والضمان المجتمعي) الهادف إلى إنتاج وإعادة إنتاج البشر.
- الركيزة الثالثة: الصفة الاجتماعية، مثل ارتباطها بتحوّلات مجتمعية واقتصادية وبالفعل الاجتماعي، وتوسّع المشكلة وامتداداتها.

8 للتحقق من جودة السؤال البحثي يمكن طرح عدة أسئلة حوله:

- هل هو صحيح بالنسبة إليّ؟ هل يستطيع معالجته من دون تحيز؟ هل يخدم مسألة قريبة مني؟
- هل هو مناسب للحقل العلمي؟ هل المعرفة الناتجة منه مهمة، مفيدة، يمكن توظيف النتائج، ما هي التحسينات التي يمكن استخلاصها؟
- هل صياغته جيدة؟ هل هو واضح؟ هل يشير إلى اتجاه الدراسة بشكل جلي؟ قد يكون عدم وضوح السؤال البحثي هو العيب الأكثر شيوعاً.
- هل يمكن الإجابة عنه؟ ذاتياً وموضوعياً؟

(فحص الأدبيات + المقابلات الاستطلاعية) لفحص النقاش النظري حول ظاهرة الطلاق وكيف لذلك أن يرتبط بتأثيرات الحرب. هنا يحاول الباحث تشخيص ما هو مجهول في فهم الظاهرة لناحية الأسباب والسياقات والتأثيرات. ومن طريق الجمع بين الظاهرة والسجال النظري يصوغ الباحث إشكالية. تصبح هذه الإشكالية الأرضية الخصبة لتوليد السؤال البحثي الذي يفحص علاقة محددة بين عدة متغيرات (مرتبطة بمفاهيم) لدى حالات/مجتمع مبحوث في إطار زمني ومكاني محدد.

المجال البحثي: علم اجتماع العائلة

الموضوع العام: تأثير الحرب في البنى الاجتماعية

الموضوع المحدد (المشكلة): تأثير الصدمة الجماعية الناجمة عن الحرب على الروابط الأسرية

الإشكالية: الإحباط الناتج من الصدمة الجماعية الناتجة من الحرب يؤدي إلى تدهور الروابط الأسرية (مع تحديد منهج الدراسة وأهميتها)

السؤال البحثي: كيف أسهم الإحباط الناتج من الصدمة الجماعية لحرب محددة في عملية التفكك الاجتماعي الحاصل في العائلات التي كان الزوج فيها مشاركاً في القتال؟

إن الإشكالية، سواء كانت بصيغة نص أو سؤال (بحسب اختلاف التقاليد البحثية)⁹، سوف توجه الباحث نحو النظرية التي يحتاج إلى استكشافها، والأدبيات التي يحتاج إلى مراجعتها، والبيانات التي يحتاج إلى جمعها، والأساليب التي يحتاج إلى الاستعانة بها.

ثانيًا: الوصول إلى المصادر

تتوافر المصادر التي يمكن أن يُستخرج منها الموضوع المحدد للبحث (المشكلة) حولنا طوال الوقت، وأقرب مما نتصور¹⁰. قد يكون المصدر شائعاً يومياً اختبرته طوال الوقت على صورة تحوّل أو مشكلة أو أزمة، وربما يكون موضوعاً يشهد سجلاً ونقاشاً متواصلين في الإعلام والمجتمع، وربما يكون المصدر متوافراً لدى أشخاص من أصحاب المعرفة والخبرة والتجربة. لكن لكي نلاحظ ذلك قد نحتاج بدايةً إلى شيء من فضول الأطفال الذين يتفحصون كل تفصيل حولهم ويبدون حساسية واضحة حيال كل ما هو جديد أو غير مألوف. لكن فضول الراشدين يمكن أن يكون منهجياً، وعالمهم شديد الاتساع ولا ينحصر بما يقع تحت الإدراك المباشر للحواس.

9 هناك وجهة نظر مفادها أنه في الأبحاث الكمية لا بد من وجود سؤال بحثي يحدد بوضوح متغيرات البحث، في حين في بعض الأبحاث النوعية يمكن الاكتفاء بنص حول إشكالية البحث حتى تبقى المعالجة مفتوحة نوعاً ما على ما ستؤدي إليه البيانات التي سيتم جمعها.

10 التفت أحد الطلاب أثناء تنقله اليومي على متن القطار إلى قواعد المساحة الشخصية غير المكتوبة التي تُحدد من يجلس في أي مقعد، ومدى قربته من الآخرين، ومن يبتعد من الآخر، وتحت أي ظروف. وشاهد الناس يتنافسون على المقاعد مع تغيير عدد ركاب العربات في كل محطة، فقرر دراسة القواعد التي تحكم هذا السلوك.

ما يحتاج إليه الباحثون في عالم اليوم هو القدرة على التعامل مع التدفق المعلوماتي الهائل من خلال تفكير منهجي ونقدي ومنفتح ونظمي وتحليلي. في عالم اليوم لا نعاني ضعف الوصول إلى المعلومات، بل تبحر المعلومات عنا وتفرض نفسها علينا. إن التحدي في عصر المعلومات هو في التدفق المتواصل والمتفجر والعشوائي والفوضوي للمعلومات، كيف أستطيع أن أرى وألاحظ وأحلل وأستنتج في ظل الضجيج المعلوماتي؟ التفكير النقدي والمنهجي يتيح لنا التعرف إلى كم هائل من النقاط ثم ربطها معاً ليصبح لها معنى ويظهر النمط المتخفي فيها.

لذلك كان مفيداً تشخيص المصادر التي يمكن للباحث اللجوء إليها لاستخلاص مشكلة صالحة لأن تتحول إلى إشكالية بحثية. وبعد تجميع كل ما جرى حسابه مصدراً محتملاً لمشكلة البحث، تم فرزها إلى ثلاث فئات: (1) الواقع؛ (2) الأدبيات؛ (3) الأشخاص. هذا التقسيم هو لغاية عملية أكثر من كونه واقعياً، لأن المجالات تتداخل أحياناً. ويمكن للباحث أن يستفيد من مصدر واحد أو أكثر للانتقال من الموضوع العام إلى الموضوع المحدد لبحثه.

يمكن اعتماد تقنية العصف الذهني لإيجاد المصدر المحتمل، حيث هناك فصل تام بين مرحلتَي استخراج الأفكار وتقييمها. في البحث داخل كل من المصادر الثلاثة، يفترض تدوين كل فكرة تظن أنها قد تفيدك، أي شيء جديد أو غريب أو لافت للنظر أو يكثر تكراره. في المرحلة الأولى من العصف الذهني، يقبل الباحث كل ما يرد في ذهنه ويدونه، يدع خياله وحده وخبرته ومعارفه تنطلق إلى حدها الأقصى. بعد ذلك، يبدأ بعملية تقييم وتنقية للأفكار التي يجد أنها قد تستحق البحث. سيكون الناتج من هذه العملية بمنزلة الوعاء الأساسي الذي ستستخرج منه الموضوع المحدد (المشكلة) والإشكالية. وكلما فرغ «الوعاء» من دون الوصول إلى الهدف، يعود الباحث إلى المصادر مجدداً لملئه ثم الربط والتحليل والفحص حتى يصل إلى غايته، وقد تكرر هذه العملية أكثر من مرة.

يمكن إيراد جملة من الخصائص الشخصية والمعرفية التي يتيح توافرها لدى الباحث قدرة على استخراج إبداعي للمشكلة والإشكاليات البحثية:

- المثابرة والانضباط الذاتي لتحصيل التراكم المعرفي (الذي يؤدي إلى حكمة وخبرة في مجالات محددة و يتيح إجراء المقارنات وربط المعارف بين أكثر من تخصص).
- الفضول المنهجي (يتيح توليد الأسئلة وجمع البيانات والمعلومات).

- التفكير النقدي والمنطقي (يتيح تحدي التفسيرات السائدة ومقداراً من الاستقلالية والعمل بطريقة منهجية تحدّ من التحيزات).
- المخيلة النشطة (تمكّن من التفكير خارج الأطر والأفكار التقليدية والانتباه إلى الأنماط داخل الفوضى وفحص تداخل المتغيرات وما يمكن أن يولّده من آثار) أو المخيلة الاجتماعية كما يشير إليها جورج ميد.
- الانفتاح الفكري (القبول بإمكان الوصول إلى نتائج غير مرغوب فيها ومعالجتها بالنقد ولكن بإنصاف).
- الموضوعية والشجاعة المعرفية والتنبه للتحيزات المعرفية (يشمل ذلك اعتماد الحوار والشك تجاه المعلومات والمعارف المسبقة الراسخة).

ثالثاً: الواقع - العالم الحقيقي

في عالم اليوم، الواقع سريع ومعقّد ومتداخل ومتحوّل، وهذا ما يجعله مؤلّداً للإشكاليات والأسئلة على مدار الوقت. وقد أصبح البحث العلمي يميل بشدة نحو الأبحاث التطبيقية وتلك الموجهة نحو المشكلات، فمشروعية الأكاديمي لم تعد معرفية حصراً بل اجتماعية أيضاً لأسباب اقتصادية وسياسية ولبنية تداول المعرفة المستجدة وطبيعة المشكلات المعاصرة التي على الأكاديميا أن تتعامل معها. يطيب لعالم البيولوجيا بيتر ميدور أن يصف البحث العلمي بأنه «فن الأشياء القابلة للحل»، فالباحث الجيد هو ليس من يطرح الأسئلة الكبيرة أو المعقدة فقط، بل هو من يستطيع أيضاً تحديد تلك الأسئلة بطريقة تجعل حلّها ممكناً، وإن كان جزئياً أو تدريجياً.

منذ القرن الثامن عشر، كانت هناك قطيعة بين الأكاديمي والمجتمع، وهو ما كان يعني وجود قطع بين إنتاج المعرفة واستخدامها. فعزل المعرفة العلمية عن التأثيرات ما بعد الأكاديمية كان يُعدّ فضيلة. فالأكاديميون يخلقون مخزوناً من المعرفة يمكن للمجتمع أن يستخلص منه ويوظفه لحل مشاكله، ولكن مدخلات هذا المخزون في الأصل تبقى منفصلة عن المخرجات المجتمعية. لكن في العقدين الأخيرين أثّرت مناقشات واسعة حول هذه المقاربة ضمن أدبيات صناعة السياسات.

لم يعد يكفي الباحث أن ينال اعترافاً من أقرانه داخل تخصصه الأكاديمي أو أن يكتفي بالنشر الأكاديمي أو المشاركة في مؤتمر

مرموق، بل يحتاج إلى أن ينال اعتراف المجتمع وأقرانه من خارج تخصصه¹¹. ففي عالم يتسارع فيه الطلب على الحاجات العامة، وترتفع فيه توقعات الناس، وتتزايد مشكلاته خطورة وتهيمن فيه الربحية وقواعد السوق، تصبح الأولوية في التمويل والمكانة للبحث العلمي القادر على توليد مخرجات تطبيقية تسترزي الناخبين أو تجتذب المستهلكين.

المجال الأكثر غنى بمصادر الأسئلة البحثية هو العالم من حولنا، الذي أصبح مع التقدم التكنولوجي ووسائل الاتصال يعني العالم كله. لذلك يجب أن يتميز الباحث بقدرة ملاحظة الواقع الذي يعيش فيه بحيث يرى التحولات في بداياتها، ويلتفت إلى الظواهر عند تبدل دورة حياتها، وينتبه للأسئلة المستجدة وكيف تتداخل الظواهر وكيف تتفاعل مع البيئة الخارجية، ويستشرف الاتجاهات الصاعدة وتداعياتها المحتملة. يحتاج الباحث إلى امتلاك القدرة على الالتفات إلى التغييرات الجينية التي يحجبها ضباب الروتين والاعتیاد، ورؤية التفاصيل المتوارية داخل التعقيد، والاستماع ومشاهدة الخطابات اليومية والممارسات اليومية للناس، أو فئة منهم، بوعي وانفتاح يجعلانه قادرًا على التنبه للجديد والمسكوت عنه والمحجوب. فامتلاك الباحث هذه الميزات، مع وعيه باختصاصه العلمي لناحية المفاهيم والنظريات، سيتيح له قدرة على توليد الإشكاليات العلمية.

من المفيد الإشارة إلى أن هناك نوعًا من البحث يسمى «التحليل القائم على البيانات» (Data-Driven Analysis)، يبدأ التحليل فيه من البيانات نفسها من دون فرضيات أو إطار نظري صارم مسبق، ويعتمد على اكتشاف الأنماط والعلاقات من داخل البيانات باستخدام أدوات تحليلية. يسعى هذا التحليل إلى استخراج المعرفة من الواقع مباشرة، فبعد أن نكون لاحظنا وجود علاقة بين متغيرات نسعى لفهم ديناميات هذه العلاقة وأنماطها¹².

1. مشكلة واقعية

11 يشير بيتر فاينغارت إلى عدة تحولات تقلل من أهمية تأييد الأقران للأكاديمي: (1) ظهور التقييم من خلال معدل مقاييس العمل الأكاديمي للباحث metrics (بيانات كمية حول عدد الإحالات البحثية للمجلات والأوراق والباحثين) وهذه المقاييس تعزز من التقييم غير الخبير عبر أشخاص مثل مشرعي الدولة والعموم. (2) الأهمية المتصاعدة للتركيز على التأثير الاجتماعي الأوسع للبحث العلمي. في الولايات المتحدة الأمريكية أضيف معيار «التأثيرات الأوسع» أول مرة في عرض عملية المراجعة في المؤسسة الوطنية للعلم عام 1997، وبمرور الوقت زادت الضغوط إلى اعتمادها داخل أمريكا وخارجها. (3) تزايد سطوة المجتمع على الأكاديميا بسبب العولمة والتقدم التكنولوجي. مثلاً المرضى اليوم حاضرون لتحدي سلطة الطبيب وخبرته، فالطب اليوم يتزايد باضطراب، هو حول نمط الحياة لا حول الصحة ببساطة، فالصحة تصبح بشكل متصاعد مسألة تعريف شخصي، ورأي شخصي، ومع تصاعد التكنولوجيا قد تختفي الجامعات بشكلها الحالي ويصبح التعليم الجامعي متاحًا مجانيًا للجميع عبر الإنترنت.

12 في المقابل هناك «التحليل القائم على المنهج» (Method-Driven Analysis) الذي يقوم على إطار نظري أو منهجي محدد مسبقًا، مثل نظرية أو نموذج تفسيري معيّن. يبدأ الباحث من افتراضات أو أسئلة بحثية ويستخدم أدوات منهجية لاختبار هذه الفرضيات، ويعتمد على تصميم منهجي صارم، حيث تُجمع البيانات وتُحلل وفقًا للمنهج المختار، لا العكس. هنا عادة ما نطلق من نتيجة لاكتشاف أسبابها أو نطلق من مقدمة للتنبؤ بنتائجها.

أشار كارل بوبر إلى أن العلم يتقدم بحل المشكلات، فكلما قمنا بحل مشكلات في موضوع معين تظهر لنا مشكلات جديدة متقدمة تحتاج إلى حلول. إن المشكلات الناشئة في الواقع، التي تفرض تحديات ومخاطر وضغوطاً على الإنسان أو المجتمع أو البيئة/الطبيعة أو أحد أوجه النشاط الإنساني وتتسبب في اضطراب الحياة البشرية، هي المصدر الأكثر غنى للإشكاليات البحثية. يمكن دراسة هذه المشكلات من خلال فحص أحد العوامل الذي يساهم في تفاقمها أو الحد منها أو تغيير طبيعتها، من خلال تأثيرها في مجالات محددة، أو دراسة نتائج تجارب وسياسات للتعامل معها.

أمثلة:

- تأثير ندرة المياه في الصراعات القبلية في دولة ما، وهكذا تتم دراسة العلاقة بين تغير المناخ وسياسات إدارة الموارد من ناحية والصراعات القبلية من ناحية ثانية.
- فشل السياسات الدولية في الحد من تدفق النفايات البلاستيك وتأثيرها في المجتمعات الساحلية في دولة ما.
- العلاقة بين ارتفاع أسعار الإيجارات في مدن محددة واندلاع حركات احتجاجية.
- العلاقة بين الفقر وارتفاع معدلات السكري في مناطق محددة.
- تأثير انهيار شبكات الكهرباء في الاستقرار السياسي في دولة ما.

2. البنى والوظائف

هناك أشكال متعددة ومتنوعة من البنى (المادية وغير المادية) والنظم التي لكل منها أدوار ووظائف محددة، مثل الأسرة والنظم السياسية والمالية والاقتصادية والاجتماعية والطبيعية، وهناك الدولة والنظام العالمي والنظم الإقليمية والمنظمات والسوق والقطاع الخاص والجيش والأحزاب والنقابات والطبقات والجماعات والبنى الفكرية والثقافية... إلخ. ينتج من كل بنية أنماط وأدوار وتأثيرات، كما أنها تؤدي وظائف محددة وتعمل بطريقة محددة وتكون عرضة للتطور والتغيير والتبدل. ما يمكن دراسته هو الاضطراب أو الانحراف في وظائف إحدى البنى أو التغيير في وظائفها أو التحولات التي تطرأ على بنية ما من داخلها أو كيف تتفاعل مع تغير عوامل البيئة الخارجية.

أمثلة:

- تأثير قوانين «المساواة الجندرية» في الأدوار التقليدية للأسرة في مجتمعات محددة.
- تأثير الشركات المتعددة الجنسيات (مثل أمازون) في سيادة الدول في صنع السياسات الضريبية.
- دور المساجد في أوروبا كمراكز للاندماج الاجتماعي بدلاً من دورها التقليدي.

- أثر التحولات البنية الاقتصادية في دولة ما في مستويات اللامساواة في الدخل والثروة.
- أثر انخراط جيش ما في المشاريع الاقتصادية الكبرى لبلده في بنيته وهويته.

3. أحداث وأنماط مستجدة

هذه الأحداث والأنماط، لا سيّما حين تبدو غير مألوفة أو غير متوقعة لكنها تتكرر بوتيرة ملحوظة. تكون هذه الأحداث مع تكررها انعكاسًا لتحوّل عميق وتعبّر عن اتجاهات جديدة، فحصولها يعني أن هناك شيئًا قد تحوّل ويستحق الفحص والدراسة. تعكس هذه الأحداث تغيّرات في البنى المادية وغير المادية، التي بدأت بدورها تفرز أنماطًا جديدة من السلوك والأفعال التي تظهر لاحقًا على صورة أحداث تترك تأثيرًا واضحًا في الأوضاع القائمة. يتيح البحث في هذه الأحداث والأنماط للباحث أن يقدم جديدًا من خلال معالجة إشكاليات جديدة أو لم يكتمل البحث فيها، وهي تكون في الوقت عينه موضع اهتمام عام.

أمثلة:

- تأثير التحوّل الرقمي في علاقات العمل وهوية العاملين في قطاع التكنولوجيا.
- دور الخوارزميات المستجدة في تعزيز الانقسامات السياسية في منصات مثل فيسبوك.
- تأثير انتشار تقنيات الذكاء الاصطناعي في أساليب التقييم الدراسي.
- زيادة انتشار النزعة القومية في الدول الليبرالية وعلاقة ذلك بأزمة النظام الدولية.
- تأثير تسارع انتشار العملات الرقمية في فاعلية أنظمة العقوبات المالية الأمريكية.

4. التطورات التقنية والتكنولوجية الجديدة

تتمحور هذه التطورات، وبخاصة منها التي تترك تأثيرات هائلة في الحياة المعاصرة على المستويات كافة (من الفرد والجماعة والمجتمع والدولة والعالم والطبيعة) حول المقصودة والمتعمدة والتأثيرات غير المقصودة التي قد تتجاوز في أهميتها أحيانًا تلك النتائج المقصودة. تولّد الثورة التكنولوجية على صعيد جمع المعلومات والبيانات وتحليلها ونقلها ضغوطًا هائلة وسريعة وشاملة على الحياة اليومية للبشر، أفرادًا وجماعات، وتعيد تكوين الثقافة والهوية والقيم وعلاقات القوة، وتفرض تحديات وفرصًا ومخاطر، وتولّد أشكالًا جديدة من التباينات والتفاوتات.

أمثلة:

- فقدان الوظائف في قطاعات محددة نتيجة تسارع نمو تطبيقات الذكاء الاصطناعي والروبوتات.
- أثر التقدم في مجالات الذكاء الاصطناعي في التحكم بتدفق المعلومات والحدّ من حرية الناس على الاختيار.

- كيف يتفاقم عدم المساواة بسبب صعوبة وصول الفئات المهمشة إلى خدمات رقمية محددة.
- التغيرات في ظاهرة الحرب نتيجة دمج تقنيات الذكاء الاصطناعي في الأدوات والاستراتيجيات العسكرية.
- تأثير التحول إلى السيارات الكهربائية في اقتصاديات الدول النفطية أو في سلوك الناس لجهة اقتناء السيارات أو زيادة العبء على قطاع الطاقة.

5. الظواهر ولا سيّما المستجدة منها أو التي يظهر فيها تبدّل ذو أثر لافت للنظر

قد ترتبط الظواهر بالطبيعة أو السلوك البشري، وقد ترتبط بأمور مادية محسوسة أو بأمور فكرية ونفسية. يمكن للباحث دراسة متغير محدد داخل الظاهرة أو تفاعل الظاهرة مع متغير من خارجها أو دراسة عمليات داخل الظاهرة أو التغيير الذي تمر فيه أو كيفية تفاعل أكثر من ظاهرة بعضها مع بعض، أو كيف يتصور الناس ظاهرة ما ويتلقونها ويفسرونها.

أمثلة:

- دراسة هيمنة الشركات التكنولوجية الغربية على بيانات المستخدمين في أفريقيا.
- تحليل تأثير تطبيقات مثل «تيك توك» على الهوية الثقافية للشباب.
- التحول في أنشطة الدماغ البشري نتيجة الاستهلاك المفرط لوسائل التواصل الاجتماعي.
- تصاعد المشاعر القومية - الدينية حول العالم وعلاقتها بالأزمات الاقتصادية، أو انتشار القيم المعولمة أو تأثيرها في حقوق مجتمعات المهاجرين.
- تأثير التغير المناخي في الهجرة الداخلية التي تعيد تكوين التوازنات الاجتماعية والسياسية وبالتالي تعزيز احتمالات الصراعات والحروب.

6. حاجات ينبغي أن تُلبى

تزايدت الحاجات العامة (الصحة، والتعليم، والنقل، والطاقة، وخدمات المسكن، والبنى التحتية، والأمن... إلخ) التي يتوقع الناس أن تتم تلبيتها أو أن يستطيعوا الوصول إليها، وبالتالي يؤدي شعور الأفراد والجماعات بأنهم محرومون حقهم في تحصيل هذه الخدمات إلى إثارة التوترات. وقد ترتبط هذه الحاجات بعموم المواطنين أو بفئات محددة منهم. إن عدم تلبية حاجات عامة، سواء من الدولة أو القطاع الخاص أو المنظمات غير الحكومية، أو شعور الناس أن هذه الحاجات لم تتم تلبيتها بالقدر الكافي، يمثلان فرصة للباحث لفحص هذه الحالات. يمكن للبحث أن يتناول أحد أسباب أو عوامل الفشل في تلبية حاجة عامة محددة لمجتمع أو شريحة محددة، أو دراسة كيفية تلبيتها بنجاح أو إجراء مقارنات بين برامج ومشروعات مختلفة لتلبية حاجة عامة محددة، أو

فهم تصورات الشريحة الاجتماعية المعنية تجاه هذه الحاجة ورضاهم عن مستوى تلبيتها أو كيف تؤثر تصوراتهم في نجاح أو فشل محاولات تلبية هذه الحاجة.

أمثلة:

- الحاجة إلى الرعاية الصحية النفسية في مناطق الحروب: مثل دراسة فشل المنظمات الدولية في توفير خدمات الصحة العقلية للاجئين في دول محددة، رغم ارتفاع معدلات الاكتئاب واضطراب ما بعد الصدمة، أو تحليل تأثير غياب الدعم النفسي في تفشي العنف الأسري في مجتمعات اللجوء.
- الحاجة إلى التعليم الجيد في المناطق الريفية النائية: بحث أسباب استمرار الفجوة التعليمية بين أطفال الريف والحضر في بلدان ما، رغم سياسات «التعليم للجميع»، أو دراسة تأثير نقص البنى التحتية (مثل الكهرباء والإنترنت) في جودة التعليم من بُعد في مناطق أو دول.
- الحاجة إلى الأمن المائي في المناطق الجافة: تحليل فشل سياسات إدارة المياه في مواجهة الجفاف المتكرر في دولة، وارتباطه بتصاعد النزاعات المحلية. أو دراسة تأثير خصخصة موارد المياه في حقوق المزارعين الفقراء.
- الحاجة إلى الإسكان الميسر في المدن الكبيرة: بحث تأثير السياسات الحكومية في إنشاء «مدن الصفيح» غير القانونية. أو تحليل دور المضاربات العقارية العالمية في تفاقم أزمة الإسكان في المدن.
- الحاجة إلى الطاقة المستدامة في المجتمعات النامية: دراسة أسباب تعثر مشاريع الطاقة الشمسية في المناطق الريفية، رغم الدعم الدولي، أو تحليل تأثير الفساد الحكومي في فشل توزيع أنظمة الطاقة المتجددة في دولة ما.

7. السياسات العامة التي يتم تطبيقها سواء على مستوى ما فوق الدولة، أو على مستوى الدولة، أو على مستوى ما دونها (مستوى محلي)

تحاول هذه السياسات تلبية حاجات عامة أو حل مشكلات، وهي تصدر من أجهزة الدولة التي غالبًا ما تختار التشاور مع القطاع الخاص وأصحاب المصلحة والمجتمع الأهلي ومنظمات دولية. تكون هذه السياسات بمنزلة إطار توجيهي للتعامل مع المسألة المعنية. ويتم تفعيل هذه السياسة العامة من خلال القوانين والمراسيم والمبادرات وبرامج العمل. واليوم يُعدّ نجاح أو فشل هذه السياسات مرتكزًا في تقويم أداء السلطات العامة، وتعكس هذه السياسات في إقرارها وتطبيقها موازين قوى وتضارب مصالح وكفاءة البنى السياسية والإدارية ذات الصلة. يمكن للباحث أن يفحص تأثير عامل محدد في عملية إقرار/أو الفشل في إقرار سياسة عامة، أو

يقوم بدراسة مقارنة لسياسة عامة تجاه قضية محددة، أو يدرس تأثير عوامل محددة في المخرجات الناتجة من تنفيذ سياسة عامة، أو يدرس تفاعلات محددة داخل عملية إعداد أو تطبيق سياسة عامة.

أمثلة:

- دراسة أسباب رفض فئات مجتمعية في بلد ما للتطعيم رغم السياسات الصارمة، وتحليل تأثير ذلك في الثقة في المؤسسات الحكومية. وكذلك بحث دور الخطاب السياسي المتضارب في تفاقم الشكوك حول اللقاحات بين الشباب.
- تحليل تأثير سياسات الأمن الحدودي لدولة ما في المجتمعات المحلية، وارتباطها بزيادة المخاطر التي يتعرض لها المهاجرون.
- تحليل مقاومة النقابات لسياسات حكومية محدّدة.
- دراسة فشل الحوافز المالية في زيادة معدلات المواليد، وتحليل العوائق الثقافية والهيكلية (مثل ثقافة العمل المُرهقة) في دولة محدّدة.
- تحليل الآثار غير المقصودة للقضاء على الفساد، مثل شلّ مؤسسات الدولة وتعطيل المشاريع التنموية. مثال: دراسة كيف أدت إدانة النخب السياسية إلى فراغ سلطة وازدهار الجماعات الإجرامية في دولة ما.

8. الأحجية

إن ظهور تعارض بين ظاهرة ونظرية يكشف عن تناقض أو قصور في معرفة سابقة. هكذا تتكوّن أحجية حيث تقول دراسة سابقة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، إن وجود عامل محدد سيكون له تأثير محدد في واقع ما ثم لا يظهر هذا التأثير كما توقعته الدراسة السابقة (مثلاً إن الاعتماد الاقتصادي المتبادل بين دول ديمقراطية يمنع الحرب، وإذ تقع حروب بين دول ديمقراطية مع اعتماد اقتصادي متبادل). انطلاقاً من الأحجية نقوم بتحدي المعرفة المسلّم بها ونطور إشكالية لإعادة صوغ العلاقة بين المتغيرات مع ما يستلزمه ذلك من تطوير التعريفات المفاهيمية وقياس هذه المتغيرات وتفسيرها.

أمثلة:

- التناقض في نظرية «السلام الديمقراطي»: مثل، كيف تؤثر عوامل كامنة (مثل القومية أو النزاعات التاريخية) في تعطيل تأثير الديمقراطية في منع الحرب؟
- فشل نظرية «التحديث» في تفسير التطرف: كيف تُعيد التفاوتات الطبقية أو الأزمات الهوية تكوين العلاقة بين التعليم والتطرف (أي لا يحول انتشار التعليم الحديث دون انتشار التطرف).
- التعارض في نظرية «العقد الاجتماعي»: ما دور تصورات «العدالة التوزيعية» وغياب التمثيل السياسي في تفجير الاحتجاجات؟

(توفير الأمن والخدمات لا يحول دون الاحتجاجات).

- مفارقة «العولمة الثقافية»: كيف تُنتج العولمة هويات مقاومة عبر إعادة توظيف الرموز المحلية؟
- تناقض «التأثير الإعلامي» في الاستقطاب (تنويع مصادر الإعلام يُعزز التفكير النقدي ويقلل التحيز): كيف تؤدي الخوارزميات و«غرف الصدى» إلى تعزيز الانقسام بدلاً من تقليله على الرغم من توافر منصات إعلامية متنوعة؟

رابعاً: الأدبيات

يُقصد بالأدبيات الكتب والمقالات والدراسات العلمية والأطاريح الجامعية وأوراق المؤتمرات العلمية. فمن خلال إجراء قراءة مسحية لهذه الأدبيات في مجال عملي محدد يمكن استكشاف مكامن واعدة للوصول إلى إشكاليات بحثية. فمراجعة الأدبيات ستمتدح للباحث التأكد من أنه لا يكرر جهود آخرين وأنه قادر على توليد معرفة جديدة. فقد تكشف مراجعة الأدبيات أن الإشكالية تم بحثها بما يكفي وليس هناك من نقص أو غموض حولها فحينها يصبح البحث بلا موضوع.

ومن الضروري هنا لفت النظر إلى الإمكانيات الهائلة التي تضمنها تطبيقات الذكاء الاصطناعي في تأدية دور مساعد باحث في فحص الأدبيات من خلال البحث عن المصادر وتحليلها ومقارنتها. لكن من الضروري التنبيه إلى مسؤولية الباحث عمّا يستخدمه من نتائج هذه التطبيقات، لذا عليه دائماً أن يتقن كتابة أوامر البحث للتطبيقات ويراجع ويدقق ما تقدمه له. إن دور تطبيقات الذكاء الاصطناعي ليس القيام بالبحث بل مساعدة الباحث.

يمكن للباحث أن يجري عملية قراءة موجزة للأدبيات الجديدة والمرجعية في مجال محدد، ويركّز على فحص الإشكالية والسؤال البحثي والمفاهيم والمتغيرات والإطار النظري ونوع البحث وكيفية جمع الداتا والنتيجة التي خلصت إليها الأدبيات المرصودة. ويمكن وضع هذه المعلومات في جدول يسهل إجراء التحليل والمقارنة ورسم خريطة ذهنية لما يدور من مناقشات علمية في المجال البحثي المحدد¹³.

13 يستفيد الباحث/الطالب من مصادر المعلومات (الدراسات السابقة/الأدبيات) من خلال إيجاد الإجابات عن تساؤلاته الآتية:
- ما هي الدراسات البارزة ذات العلاقة بالموضوع العام لبحثي المقترح؟
- كيف تناولت هذه الدراسات المحاور الأساسية التي يتكون منها الموضوع العام؟
- ما الأفكار الرئيسية والثاتوية والمنهجية التي يمكنني الاستفادة منها من خلال هذه الدراسات؟
- ما المراجع العلمية التي لفتت إليها هذه الدراسات؟
- كيف أستفيد منها في صوغ مفاهيم ومشكلة وإشكالية بحثي؟

يمكن توظيف هذا الجدول للوصول إلى الآتي:

1. التناقضات المعرفية

تظهر هذه التناقضات من خلال سجلات مفاهيمية ونظرية وتجريبية تقدم تفسيرات متناقضة حول ظاهرة ما. يعود هذا إما إلى كون الظاهرة مستجدة وإما إلى توافر رؤى جديدة في التخصص نفسه أو في تخصص آخر تتحدى الرؤى القديمة. ويفيد حصول السجل بأهمية المسألة المثارة وحداثتها وإمكان المساهمة في تطوير النقاش من خلال اختبار فرضيات إضافية أو إدخال مفاهيم (متغيرات) جديدة أو إعادة تعريفها، أو من خلال اختبار حالات ومجالات بشرية أكثر تنوعاً أو مقاطعة الطرق الكمية والنوعية في دراسة المسألة المثارة.

أمثلة:

- **صراع نظريات التنمية:** نقد تطبيق نظريات التحديث الغربية على تجارب تنمية محددة. مثلاً، رغم اتباع رواندا سياسات اقتصادية ليبرالية (مثل جذب الاستثمار الأجنبي)، فقد حققت نمواً سريعاً من دون تطبيق النموذج الغربي على نحو كامل. لماذا فشلت توقعات نظريات التحديث في تفسير نجاح رواندا؟ هل يعود ذلك إلى دور القيادة المحلية (بول كاغامي) أو التركيز على الرأسمالية الاجتماعية؟
- **جدل «العقد الاجتماعي» في الفلسفة السياسية:** دراسة التناقض بين تصورات روسو وهوبز في سياق الثورات العربية. مثلاً، نجحت الثورات في إسقاط الأنظمة (كحالة تونس)، لكنها فشلت في تحقيق «الإرادة العامة» بسبب الصراعات الداخلية. كيف تفسر فجوة التطبيق بين نظريتي هوبز وروسو في سياقات عدم الاستقرار السياسي؟
- **تضارب تفسيرات العنف الديني:** تحليل كيف تفسّر الأدبيات الإسلامية (انحراف وعوامل خارجية) والغربية (ثقافة وعوامل داخلية) ظاهرة الإرهاب على نحو متناقض. الإشكالية: كيف يمكن تطوير نموذج تفسيري يجمع بين العوامل الداخلية (دينية) والخارجية (سياسية)؟
- **تناقض نظريات العولمة:** بحث اختلاف تفسيرات «التدويل» بين علماء الاقتصاد (فرصة للنمو) وعلماء الاجتماع (تآكل الهويات والتفاوت). لماذا أدت العولمة إلى ازدهار اقتصادي في فيتنام في حين زادت الفقر في بعض بلدان أفريقيا؟ كيف تتفاعل العوامل الاقتصادية (الاستثمار الأجنبي) مع العوامل الثقافية (المقاومة المحلية) في تكوين نتائج العولمة؟
- **صراع المنظورات في علم النفس الثقافي:** دراسة التناقض بين مفاهيم «الفردية» و«الجماعية» في الأدبيات الآسيوية (التوازن الاجتماعي) والأوروبية (الاستقلالية والنجاح الفردي). كيف تفسر نجاح شركات تقنية يابانية (مثل سوني) في الجمع بين الابتكار الفردي والعمل الجماعي؟

2. الفجوة والنقص

يتيح فحص الأدبيات بطريقة نقدية التعرّف إلى ما توصلت إليه الأبحاث الأكاديمية السابقة في موضوع ما، وتاليًا ما الذي لم يُستكشف بعد، أو ما لم تتم معالجته كفايةً، سواء من ناحية نظرية ومفاهيمية أو من ناحية تجريبية وتطبيقية. يمكن أن تتيح مراجعة أدبيات موضوع ما فهم ما الذي يتم التركيز عليه وما يتم إغفاله لناحية مفاهيم محددة أو حالات تطبيقية معيّنة (نقص في دراسة شريحة أو منطقة أو فئة محددة) أو طرائق في جمع البيانات (كأن يجري الاستغراق في بحث الموضوع من خلال الداتا النوعية أو الكمية وإهمال الأخرى).

أمثلة:

- غياب دراسات «النوع الاجتماعي» في الصراعات المسلحة: استكشاف نقص الأبحاث حول دور النساء في الحروب الأهلية.
- إهمال تأثير اللغة في الهوية في الأدبيات: دراسة كيف تُهمَل الأبحاث دور اللهجات المحلية في تشكيل الهوية في دولة ما.
- نقص دراسات حول جوالٍ محددة في بلدان أو قارات: تحليل أسباب ندرة الأبحاث عن المسلمين في البرازيل مثلاً.
- فجوة في دراسة الاقتصاد غير الرسمي: بحث إهمال الأدبيات لدور «السوق السوداء» في اقتصاديات الدول الأفريقية، أو كيف يعزز «اقتصاد الكاش» القدرة على مواجهة العقوبات المالية.
- غياب مقارنات بين النماذج التعليمية: دراسة نقص الأبحاث التي تقارن بين أنظمة التعليم في بلدان محددة.

3. التكرار

من خلال مراجعة الأدبيات، ولا سيّما تلك الأحداث زمنيًا، يمكن ملاحظة إن كان هناك مسألة أو مفهوم أو نظرية دائمة الترداد في المناقشات العلمية في موضوع ما. تشير هذه الكثرة إلى أهمية الموضوع وحداثته أو أن هناك نقاشًا علميًا نشطًا لم يكتمل بعد في تناول الظاهرة أو الإشكالية المثارة. قد يكون هذا التكرار ناتجًا من نشوء ظاهرة جديدة أو حصول تطور معرفي نظري/مفاهيمي أعاد خلط الأوراق أو أنه يُعزى إلى ظهور اتجاهات جديدة في الواقع الاجتماعي.

المثال الأبرز في السنوات الأخيرة هو بروز اتجاهات وظواهر ومفاهيم مرتبطة بالثورة الرقمية والذكاء الاصطناعي وتترك تداعيات على مختلف مناحي الحياة الاجتماعية، وكان من نتائجها ولادة «علم الاجتماع المحوسب» على سبيل المثال. وفي مجال العلاقات الدولية، انتشرت مفاهيم ودراسات في السنوات الأخيرة حول مفاهيم مثل القوة الناعمة، وحرب الوعي/الإدراك، واليمين المتطرف، والشعبوية، واللايبرالية، واستدامة الصعود الصيني، والتحوط في السياسة الخارجية.

4. النظريات الجديدة

يتيح ظهور نظريات جديدة في الموضوع أو التخصص نفسه أو تخصصات مجاورة له إمكان توليد فرضيات جديدة واختبارها. قد تهدف هذه الفرضيات إلى تحدي معرفة سابقة أو إضافة متغيرات إضافية إلى فرضيات سابقة تجعل نتائجها أكثر دقة ووضوحًا، أو اختبارها في سياقات تطبيقية مختلفة. إن من أسباب التردد في طرح أسئلة محددة هو الخضوع لنظريات معينة وتجنبّ تحديها، ولذلك يمكن لنظرية جديدة أن تشجع على مغادرة منطقة «الراحة». كما قد يؤدي ظهور نظريات جديدة إلى نشوء باراداييم جديد يمثل ثورة في العلم، وهنا تفتح آفاق أوسع لاستخراج موضوعات بحثية جديدة.

أمثلة:

- تطبيق نظرية «الرأسمالية المراقبة»¹⁴ (شوشانا زوبوف): دراسة تأثير شركات التكنولوجيا في الديمقراطية في الهند.
- تأثير نظرية «الاستعمار الاستيطاني»¹⁵ في السياق الفلسطيني: تحليل إسهامات نظريات جديدة في فهم الصراع.
- تأثير نظرية «الأنثروبوسين»¹⁶ في العلوم الاجتماعية: بحث كيفية إعادة تعريف العلاقة بين البشر والطبيعة. دراسة كيف تُعيد الكوارث البيئية (مثل حرائق الأمازون) تكوين الهجرة والصراعات الاجتماعية في أمريكا.
- نظريات «العدالة الانتقالية»¹⁷ في مرحلة ما بعد الثورات: دراسة تطبيقاتها في تونس ومصر.
- تطوير نظرية «الشبكات الاجتماعية»¹⁸: تحليل إسهامات مانويل كاستلز في فهم الثورات الرقمية. كيف تُعيد الشبكات الرقمية تكوين مفهوم «القوة» في السياسة المعاصرة؟

14 تشير إلى نظام اقتصادي تستغل فيه الشركات التكنولوجية الكبيرة (مثل فايسبوك وغوغل) بيانات المستخدمين الشخصية بصورة مكثفة، وتحولها إلى سلعة تُباع للمعلنين أو تُستخدم للتأثير في السلوك البشري. تعتمد هذه النظرية على فكرة أن المراقبة ليست مجرد أداة للرقابة، بل آلية لتحقيق الأرباح عبر التنبؤ بال رغبات وتشكيلها.

15 تركز على أن الاستعمار ليس مجرد احتلال عسكري، بل هو مشروع استيطاني يهدف إلى إحلال سكان جدد مكان السكان الأصليين، مع تدمير هويتهم الثقافية والسيطرة على الموارد.

16 مصطلح يقترح أن البشر أصبحوا القوة المهيمنة على الكوكب، وهو ما أدى إلى تغيرات جيولوجية غير مسبقة (مثل تغير المناخ، وانقراض الأنواع). تُعيد هذه النظرية تعريف العلاقة بين البشر والطبيعة، مؤكدة أن النشاط البشري ليس خارجًا عن النظام البيئي، بل هو جزء مُدمر له.

17 تشمل آليات مثل محاكمات المسؤولين عن الانتهاكات، ولجان الحقيقة، وتعويض الضحايا، لإعادة بناء الثقة بعد انهيار الأنظمة الاستبدادية. وتهدف إلى المصالحة بين الضحايا والجناة، ومنع تكرار العنف.

18 ترى أن الثورة الرقمية حولت المجتمعات إلى «مجتمعات شبكية»، حيث بُنِيَت العلاقات والسلطة عبر شبكات التواصل (مثل فايسبوك، وتويتر). تؤكد النظرية أن الثورات الحديثة (كالربيع العربي) تعتمد على تفاعل الشبكات الافتراضية مع الحركات الواقعية.

5. الربط بين التخصصات/ تداخل التخصصات (interdisciplinary)

يمثل تقاطع «المناطق الحدودية» بين التخصصات العلمية أو الحقول المعرفية مصدرًا مهمًا للإبداع العلمي حيث يمكن إنتاج معرفة جديدة بفعل دمج نظريات أو أدوات أو مناظير أو مناهج أو إشكاليات أو مفاهيم لتوفير إجابة أكثر شمولية عن سؤال شائك. كما أنه قد يتم خلق حاجة في اختصاص معين لخدمة اختصاص آخر مثل الحاجة إلى صناعة مادة كيميائية معينة تساهم في حفظ عضو كائن حي لأهداف بيولوجية. أو أحيانًا موضوع البحث نفسه يشمل اختصاصات متعددة كدمج الاقتصاد بالسياسة أو علم الفيروسات بالاقتصاد، أو علوم الاجتماع والدّاتا. لذلك يمكن للباحث أن يفحص أين تقترب التخصصات العلمية الأخرى من تخصصه ولا سيما لناعية موضوعات ومفاهيم ذات اهتمام مشترك، فضلًا عن توظيف المعارف والنظريات الجديدة من تلك الاختصاصات واختبارها في اختصاصه.

أمثلة:

- دمج علم الاجتماع وعلم البيانات: دراسة استخدام تحليل البيانات الضخمة في فهم الحركات الاحتجاجية.
- التقاطع بين الاقتصاد وعلم النفس: بحث تأثير «التحيزات المعرفية» في قرارات الاستثمار في الأسواق الناشئة.
- الربط بين العلوم السياسية والأحياء: تحليل تأثير العوامل الجينية في السلوك الانتخابي.
- دمج الأنثروبولوجيا والتكنولوجيا: دراسة تأثير الروبوتات الاجتماعية في العلاقات الإنسانية.
- التقاطع بين القانون والذكاء الاصطناعي: بحث تحديات تنظيم استخدام الخوارزميات في القضاء.

خامسًا: الأشخاص

يمكن الباحث الاستفادة من تجربته الذاتية أو من خبرات آخرين ومعارفهم البحثية من خلال مقابلتهم ومحاورتهم. المقابلات مع الأشخاص في هذه المرحلة هي ذات طبيعة استكشافية واستطلاعية، وهي مختلفة عن المقابلات التحقيقية التي يجريها الباحث مع وحدات المعاينة (أي مع عينة من المجتمع المبحوث) وذلك بغرض تحليلها واستخراج معرفة منها مرتبطة بإشكالية البحث وفرضياته.

1. التجربة الشخصية للباحث نفسه

لكل باحث خبرة وتجربة معرفية وعملية وشخصية ناتجة من مهنة/وظيفة/عمل أو هواية أو من فضول خاص تجاه موضوعات محددة، أو من ظروف واختبارات حياته اليومية¹⁹. تمثل هذه الخبرة أو التجربة مصدرًا غنيًا جدًا لاستخلاص الموضوعات (المشكلات) والإشكاليات، ولذلك يمكن تشجيع الباحثين على إنشاء روابط بين تلك التجارب والخبرات الذاتية والاهتمامات الأكاديمية والبحثية.

19 في إحدى الحالات اختارت ممرضة سابقة تدرس الصحة والسلامة المهنية موضوعًا لدراساتها «العنف ضد طاقم التمريض في أقسام الطوارئ»، وذلك بعد أن أجبرها اعتداء أحد المرضى على تغيير مسارها المهني. في حالة أخرى اختار ضابط سلامة من الحرائق (أشرف على تحقيق أدى إلى وفاة سبعة أشخاص بسبب تجاهلهم جهاز إنذار)، موضوعًا لبحثه حول «تجاهل أجهزة إنذار الحريق في ناطحات السحاب في هونغ كونغ».

أمثلة:

- يمكن لضابط يعمل في مجال مكافحة الإرهاب إجراء دراسة حول سياسات مكافحة الإرهاب في سياق محدد أو دراسة حول تنظيم إرهابي واجهه.
- موسيقي أفريقي أنجز رسالة دكتوراه حول دور الموسيقى في التنمية في أفريقيا.
- حائز دكتوراه في الفيزياء أنجز دراسة حول اللغة والرياضيات.
- باحث استخدم تجربته الشخصية في العمل الإنساني لتطوير بحث مؤثر في مجال الصحة النفسية للاجئين.
- باحثة اعتمدت على خبرتها العملية في التعليم لتطوير نموذج مبتكر لسد الفجوة التعليمية في المناطق النائية.

2. الأكاديميون المتخصصون في مجال بحثي محدد

وذلك بفعل اهتماماتهم البحثية أو موادهم التدريسية أو تجربتهم العملية في مراكز بحثية. من المفترض أن يكون المشرف على الطالب هو الشخص الرئيسي بين هؤلاء. يمكن هؤلاء أن يسهموا في الكشف عن المناقشات المستجدة في مجال البحث والموضوعات الجديدة التي تستحق البحث أو المقاربات الجديدة التي من الممكن توظيفها. لكن من المهم الالتفات إلى أن التواصل مع الأكاديميين يستلزم من الطالب/الباحث أن يكون قد أنجز مراجعة أدبيات موجزة واستخلص منها جملة أفكار مفتاحية تتضمن مقترحات وتساؤلات للقيام بتصفيتهما من خلال النقاش وذلك بدل افتراض أن الأستاذ المختص هو من عليه عرض المقترحات على الطالب. لذلك من الضروري على الطالب/الباحث أن يكون مدرّكاً لما يريده تماماً من المقابلة ولديه أسئلة واضحة ومحددة ويعرض ما راكمه في العملية الاستكشافية بما يؤكد جديته ويكشف قدراته وحاجاته وهذا ما سوف يخلق حافزاً أعلى لدى من يستشيرهم من الأكاديميين على التعاون معه بفاعلية أعلى.

3. أصحاب الخبرة والتجربة في المجال موضع الاهتمام

هذه الفئة هي في حالة تفاعل مستدام مع الواقع وتعقيداته ومستجداته وتداخلاته، وهي تجمع ما بين المعرفة الإجمالية والإحاطة بالتفاصيل والمؤثرات الكامنة. وبسبب التجربة والخبرة يكون لدى هؤلاء معاشة مع المشكلات والتحديات والمعضلات، ولا سيما المستجدة منها أو المعقدة أو التي استمرت مدة طويلة، وهذه تمثل مصادر غنية لاستخراج إشكالية بحثية. ويمكن حسب أصحاب المصلحة أيضاً من ضمن هذه الفئة، وهم الأشخاص والجهات الذين يتأثروا بظاهرة ما أو مشكلة ما. هؤلاء يختبرون الظاهرة أو المشكلة بطريقة مختلفة لأنها تمس مصالح مباشرة لهم ويختبرونها فردياً واجتماعياً وينفعلون معها ويكونون تصوّرات بسببها وهذه التصورات نفسها تؤدي إلى إعادة تكوين الواقع بطريقة مختلفة.

خاتمة

سعت هذه الورقة إلى تقديم دليل عملي ومنهجي لمساعدة طلاب الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية والإنسانية والسياسية على اجتياز المرحلة الأكثر حرجًا في بدايات البحث العلمي: تحديد موضوع البحث وإشكاليته. تمثلت نقطة الانطلاق بأهمية الانتباه إلى العالم الواقعي وما يوفره من مصادر خصبة للموضوعات البحثية، ومنها إلى مراجعة الأدبيات العلمية بصورة نقدية لاكتشاف الفجوات والمناقشات الحية، وصولًا إلى الاستفادة من التجربة الشخصية وخبرات المختصين ومعارف الأكاديميين. عرضت الورقة 16 مصدرًا محتملاً يمكن للباحث النظر فيها خلال المرحلة الاستكشافية بهدف تحديد موضوع بحثه ومشكلته وتحويلها إلى إشكالية بحثية. إن الإلمام بهذه المنهجية يُعزز قدرة الباحث على رؤية الفرص البحثية الكامنة حوله وتحويلها إلى مشاريع علمية أصيلة تسهم في تطوير المعرفة والمجتمع معًا.

إن البحث العلمي هو رحلة وعملية ممنهجة، وهذه الرحلة هي مغامرة فكرية تتطلب شغفًا وفضولًا وصبرًا. كل فكرة صغيرة تلمع في الذهن، كل ظاهرة مستجدة، كل فجوة في الأدبيات، يمكن أن تكون بذرة لمساهمة علمية إضافية. على الباحث أن يحافظ على فضوله حيًا، ويدافع عن أسئلته، ويتعلم من نقد الآخرين، ويواصل البحث رغم العثرات، فالمياه الراكدة تتعفن، أما المياه الجارية فتبقى صافية. إن على الباحث الطموح أن يضيف صوته الخاص إلى مسيرة المعرفة الإنسانية، وبمقدار ما تهتم النتائج ينبغي أن يهتم أيضًا بما ستحقق له هذه الرحلة من نضج فكري وإنساني، وبما ستوفره من خير عام ومساهمات مجتمعية.

مصادر

- ريمون كيفي، لوك فان كمبنهود، دليل الباحث في العلوم الاجتماعية، تعريب يوسف الجباعي، المكتبة العصرية، 1996.
- Ashley T. Rubin, *Rocking Qualitative Social Science*, Stanford University Press, 2021.
- Gary T. Marx, *Of Methods and Manners for Aspiring Sociologists: 37 Moral Imperatives*, The American Sociologist, Vol.28, No.1, 1997, pp. 102–25.
- Patrick White, *Developing Research Questions*, Palgrave Macmillan, 2009.
- Peter B. Medawar, *Advice to a Young Scientist*, Harper Colorphon Books, 1979.
- Peter Weingart, «A Short History of Knowledge Formations,» in: Julie Thompson Klein & Carl Mitcham (eds.), *The Oxford Handbook of Interdisciplinarity*, Oxford University Press, 2010, pp. 3 to 14